كراسات اشتراكية

(١)

القضية الفلسطينية

بين السلام الأمريكى والثورة الجماهيرية

اعداد

مركز الدراسات الاشتراكية

إهـــــــــداء ٢٠٠٦

المرحوم / يوسف درويش

القاهرة

القضية الفلسطينية

بين السلام الأمريكى والثـــورة الجماهيريـــة

المحتويات

مقدمة

"أطلقوا ١٨ رصاصة على باب بيتنا .. اخترقت الرصاصات جسد أمى وجسد أخى يعقوب .. فسقط الاثنان على الأرض .. اتصلت بكل من أعرفهم لنقوم بنقلهم إلى المستشفى .. ولكن لم يأت أحد .. كانا يموتان أمام عيناى .. وعندما أتت عربة الإسعاف رفض ضابط إسرائيلى إعطائها الإذن بدخول شارعنا .. ولذا ظللنا على مدى ٣٠ ساعة بينما الجثث مسجاة أمامنا .. وحشرنا الأطفال فى دورة المياه لمنعهم من رؤية منظر الجثث .. أرجوكم ساعدونا".

هكذا استنجد سامى عابدة ــ فلسطينى من بيت لحم ــ بالصحفى البريطانى المتخصص فى شئون الشرق الأوسط روبرت فيسك في مكالمة هاتفية بعد بدء الغزو (المجزرة) الإسرائيلية بأسبوع. إن تجربة عابدة المروعة ليست مجرد تجربة شخصية، بل هي تجربة شعب بأكمله. وهى لم تبدأ فى ٢٩ مارس الماضى. ولكنها بدأت قبل ذلك بـ ٥٤ عاماً عندما تواطأت الإمبريالية العالمية مع الحركة الصهيونية على زرع دولة الاستعمار الاستيطانى العنصرية ــ إسرائيل ــ في المنطقة.

لم تنشأ دولة إسرائيل من فراغ. كان ورائها نظام استعماري عالمي يسعى لحراسة منابع النفط في الشرق الأوسط، وحركة صهيونية عنصرية وضعت على عاتقها مهمة حماية مصالح سادة الرأسمالية العالمية، وطبقات حاكمة عربية تخشى انتفاضة جماهيرها وترتمي في أحضان الولايات المتحدة والقوى الاستعمارية الجديدة. ولن يمكن القضاء على دولة إسرائيل من فراغ. فذلك لا يتطلب فقط النضال ضد سلطة الاحتلال والقهر، وإنما أيضاً الكفاح ضد الأنظمة المستغِلة المتواطئة التي اعترفت بإسرائيل وساعدتها على قمع وتطويق حركة التحرر الفلسطينية.

لم تتضح الحقائق أكثر ما اتضحت اليوم. ففي هذه اللحظة الحاسمة تقف جميعاً كشهود على آخر "إنجازات" نظام التوحش الاستعماري المسمى بـ"النظام العالمي الجديد": إسرائيل تذبح الشعب الفلسطيني في عملية عسكرية تذكرنا بفظائع النازية؛ الولايات المتحدة تمدها بالسلاح والدعم السياسي؛ أما الأنظمة العربية فهي تتوسل إلى أمريكا ولا تدفع مليماً واحداً لدعم المقاومة الباسلة بينما تقوم آلات قمعها بقتل المتظاهرين من أجل تحرر فلسطين. وحدها المقاومة ـــ ومعها حركة الجماهير الغاضبة في الشارع ـــ تقف في مواجهة آلة الحرب الجهنمية لإسرائيل فاضحة الأكاذيب التي روجها

الحكام العرب ورجالهم وصحفييهم وكتابهم. فاليوم نحن نعلـــم عــن يقين أن سلام مدريد وأوسلو لم يكن أكثر من فصل جديد من فصول الاحتلال العسكري البغيض ــ فصلاً أكثر عمقاً وقسوة ولكن تحـــت غطاء الشرعية الدولية الناعم!

السلام البرجوازي ــ أي التواطؤ مع الإمبريالية على نـــهب وقهر انشعوب ــ ذهب إلى مزبلة التاريخ. أمـــا الأنظمـــة الفاســدة المستغِلة التي روجت أن "السلام" هـــو طريـــق الحريـــة والرخـــاء والرفاهية، فقد تعرت من آخر أوراق التوت التي سترت بها نفســـها في نفس اللحظة التي زمجرت فيها الدبابات منطلقة ــ بـــأمر مـــن شارون وعصابته ــ لسحق الشعب الفلسطيني في مدنه وقراه وأحيائه الفقيرة البائسة.

يقولون أن أحلك لحظات الليل هي آخره. ذلك ــ بدقة ــ هـو ملخص ما نعيشه هذه الأيام. فالمجزرة الأخيرة دليل على فشل آلـــة القمع الصهيونية في إخماد صوت المقاومـــة الفلسـطينية. وقتلـــى المظاهرات في مصر والبحرين دليل على إفلاس الطبقات العربيـــة الحاكمة وفقدانها لأي شرعية. لقد طفت التناقضات علـــى السـطح واشتد التناحر إلى مداه. فلم يعد هناك شك في أن تحـــرر فلســطين مرهون بتحرر البلدان العربية من أنظمة غاشمة فقدت مبرر وجودها

بعد أن أفلست كل رهاناتها الخارجية (السلام الأمريكي) والداخليـــة (الإصلاح الاقتصادي). ولم يعد هناك شك أن استراتيجية المقاومـــة والثورة، وليست استراتيجية طاولة المفاوضات سيئة السمعة، هـــي الطريق الوحيد إلى تحرير فلسطين. فقط طريق الانتفاضة هو البديل الوحيد. فالطبقات التي تقاسي ويـــلات الاحتـــلال والصهيونيـــة ــ الطبقات العاملة والفقيرة ــ هي وحدها المنوط بـــها رفـــع رايـــات المقاومة.

إن دعم الثورة الفلسطينية هو واجـــب الجمـــاهير العماليـــة العربية. إسرائيل زُرعت في المنطقة لقمع ثورات الكـــادحين ضـــد الفقر والاستعمار. ولذلك فقوى الثورة ــ والطبقات العاملة في القلـــب منها ــ صاحبة مصلحة في مزج ثورتها ضد الاستغلال في الداخـــل مع ثورتها ضد الصهيونية والإمبريالية.

إن طريق الثورة الاشتراكية، طريق الثـــورة ضـــد كـــل اســـتغلال واضطهاد، هو طريق التحرر من الصهيونية ومن الأنظمـــة التـــي تحمي الصهيونية وتعترف بها وتطبّع معها. ونحن هنـــا فـــي هـــذا الكراس نقدم وجهة نظر الاشتراكية في قضية فلسطين. ونشرح فيـــه أصل وتاريخ القضية ومراحل تطورها المختلفة، وذلك من أجل فـــهم جوهر الصراع ولتأكيد الحقيقة البسيطة التي أدركتها الجماهير، وهي

أن الحل الجذري لمسألة احتلال فلسطين يقتضي ثــورة جماهيريــة تواجه الصهيونية والإمبريالية وتواجه أيضا حلفائهما في المنطقة.

القســـم الأول

.. انتفاضة الأقصى تفضح خدعة "التسوية السلمية" ..

مثّلت انتفاضة الأقصى التي اندلعت في ٢٨ سبتمبر ٢٠٠٠ ضربة قاصمة لمشروع "السلام" برعاية أمريكا الذي تبنته منظمة التحرير الفلسطينية بدعم وتأييد من الأنظمة العربية وعلى رأسها مصر. الانتفاضة ليست ـ كما يرى ويتمنى قادة البرجوازيات العربية ـ مجرد "أزمة عابرة" بين مرحلتين من المفاوضات على طريق مدريد وأوسلو، وإنما هي بداية لمرحلة نوعية جديدة في تاريخ الكفاح الوطني الفلسطيني.

المرحلة الراهنة من حركة التحرر الفلسطينية التي بدأت قبل ١٨ شهراً تكشف عن تحولات أساسية في طبيعة النضال ضد الصهيونية. فهي تعكس تفجر الرفض الفلسطيني لبديل المفاوضات الذي أثبت إفلاسه بعد سبع سنوات عجاف من التجربة في ظل السلطة الوطنية الفلسطينية (١٩٩٤-٢٠٠٠). على مدى هذه السنوات تبخرت كل أوهام السلام ولم تبق إلا الحقائق المريرة، وهي حقائق وصفها أحد المعلقين المعتدلين بأنها تمثل "فظائع الاحتلال بحماية شرعية أوسلو".

في ظل مرحلة ازدهار السلام ـ مرحلة أوسلو ـ تعلمت الجماهير الفلسطينية أن طريق المفاوضات لم يؤد إلا إلى تعميق الاحتلال. فبينما كان المفاوضون الفلسطينيون يناقشون آلاف التفاصيل التافهة بلا كلل، كانت سلطة الاحتلال تخلق حقائق جديدة على الأرض. فقد استمر الطرد القسري لأكثر من ثلاثة ملايين لاجئ فلسطيني بدون الإقرار ـ ولو حتى اللفظي ـ بحق العودة؛ وتقطعت أوصال الضفة وغزة بعشرات من الطرق الالتفافية ونقاط التفتيش التي يسيطر عليها الجيش الإسرائيلي؛ وتكرّس الاحتلال العسكري لأجزاء واسعة من الضفة مع السيطرة التامة على كافة الطرق الرئيسية ومحاور الانتقال في كل الأرض المحتلة؛ وتعمّق الاستغلال الاقتصادي البشع والهيمنة على الأسواق والعمليات التجارية؛ وتسارع التوسع الاستيطاني السرطاني المصحوب بمصادرة الأراضي وتجريفها؛ فضلا عن ازدياد الإصرار على رفض إنشاء دولة تحقق الحد الأدنى من طموحات الشعب الفلسطيني.

الانتفاضة إذن خلقت مأزقا استراتيجيا لـ"معسكر السلام" الذي تزعمته الولايات المتحدة وانخرطت فيه الطبقات الحاكمة العربية والسلطة الوطنية الفلسطينية. وإذا ما تذكرنا أنها اندلعت بعد مرور شهور قلائل على النصر البطولي للمقاومة اللبنانية ونجاحها في

فرض استسلام مخزي على جيش الاحتلال في الجنوب، يمكننـــا أن نفهم تماماً كيف أنها مثّلت مشروعية سياسية جديدة لبديل المقاومـــة على حساب بديل "مسيرة التسوية السلمية".

جاءت المشروعية الجديدة لبديل المقاومة لتعكس ليس فقط تصـــاعد معاناة الشعب الفلسطيني في ظل أوسلو، وإنما أيضاً استحالة تحقيـــق تسوية تحقق أدنى طموحاته من خلال البديل التفاوضي. والحقيقة أن هذا لا يمثل أي مفاجأة لمن يعرف طبيعة إســـرائيل. فحتـــى خيـــار التصفية النهائية لاحتلال ١٩٦٧ لم يكن مقبولاً أبداً في أوساط النخبـــة الإسرائيلية الحاكمة بمختلف تياراتها من اليمين إلى اليســـار. ليـــس مطروحاً أن تقبل دولة الاستعمار الاســـتيطاني العنصريـــة بحـــق العودة، وليس مطروحاً أن تنسحب إلى حدود ١٩٦٧ كمـــا يريدهـــا الحكام العرب أن تفعل، وليس مطروحاً أن تســـمح بوجـــود دولـــة فلسطينية لها مقومات حقيقية تعيش وتنمو في ســـاحتها الخلفيـــة ـــ باختصار ليس مطروحاً أن تتخلى إسرائيل ولو عن جزء من طبيعتها العنصرية الاستعمارية في مقابل التوصل لـ"تسوية تاريخيـــة" كمـــا تتمنى البرجوازيات العربية.

من هنا رأينا تصاعد التأييد لبديل المقاومة فـــي صفـوف الشــعب الفلسطيني حتى قبل انطلاق انتفاضة الأقصى. فعندما تم توقيع اتفاقية أوسلو في عام ١٩٩٣ حظيت على الفور بتـــأييد ثلثــي الجمـــاهير الفلسطينية. لكن بمرور الوقت هبطت التوقعات الفلسطينية المتفائلـــة بثمار عملية السلام من ٤٤% في ظل حكومة بيريز، إلى ٣٠% فـــي العام الأول من حكم نيتنياهو، إلى ٢٤% في ظل حكم باراك، إلـــى ١١% مع انتخاب السفاح شارون.

أما عن العمليات الاستشهادية ، فقد تزايد مؤيدوها بشكل مذهل خلال شهور الانتفاضة. فبين سبتمبر ٢٠٠٠ وسبتمبر ٢٠٠١ ارتفعت نسبة من يعتقدون أنها وسيلة فعالة للمقاومة من ٥٠% إلـــى ٨٥%. ولـــم يكن ذلك فقط بسبب نجاحها في تحقيق أعلى مستوى للتـــوازن بيـــن المقاومة والاحتلال خلال التاريخ الطويل للصراع، ولكن أيضا لأنها تعد تقريباً الأداة الكفاحية الوحيدة في متناول الشعب الفلسطيني بعـــد أن تواطأت القوى الإقليمية والدوليـــة وحرمـــت حركـــة المقاومـــة الفلسطينية من التسليح الذي يمكنها مـــن مواصلـــة نضالـــها ضـــد الاحتلال.

وفي مواجهة المقاومة الفلسطينية البطولية كان "الخيار" الإســـرائيلي هو القمع الوحشي. فقد صعد شارون ممثل الفاشية الصهيونية إلـــى السلطة بعد أربعة أشهر من الانتفاضة لتنفيذ برنامج ستخابي يتلخص في نقطة واحدة: سحق روح المقاومة لدى الشعب الفلسطيني. ومـــع كل فشل في تحقيق الهدف كان شارون ـــ بدعم من الولايات المتحدة والقوى العالمية الكبرى ـــ يلجأ إلى أساليب أكثر وحشية في محاولـــة مجنونة للحفاظ على هيبة دولة الاستعمار الاستيطاني. فمن القصـــف بالمروحيات وبمقاتلات الـــ"إف-١٦"، إلى تدمـــير المنـــازل، إلـــى الاغتيالات، إلى التوغل المتكرر في أراضي السلطة الفلسطينية، إلى حصار عرفات، إلى الغزو الشامل للأراضي الفلسطينية في عمليـــة بربرية تركت مئات القتلى وآلاف الجرحى والمعتقلين، عبأ السـفاح القذر كل آلة الحرب الصهيونية في محاولة محكوم عليـــها بالفشـــل لتصفية المقاومة و"حسم القضية" بقوة السلاح.

كم يبدو الحديث عن "السلام" في هذا السياق مقززاً ومقيتـــاً؟ فبينما يُذبح الفلسطينيون بالمئات على يد مجرمي الحـــرب، يتحـــدث الطغاة العرب عن السلام "كخيار استراتيجي"! وبينما يدمر شـــارون "البنية التحتية" للسلطة الوطنية الفلســـطينية تحـــت مظلـــة الحـــرب

الأمريكية ضد الإرهاب، يأمر الطغاة العرب أجهزة قمعـــهم بســـحق المظاهرات الجماهيرية وبحماية السفراء الإسرائيليين!

إن شهوراً قليلة من الانتفاض والثورة تعلم الجماهير مـــا لا يمكنـــها تعلمه على مدى سنوات طوال. فاليوم يبدو واضحاً معنـــى "الســـلام البرجوازي"، ويبدو واضحاً دور الأنظمة العربية في قـــهر الشـــعب الفلسطيني ونهب وقمع الشعوب العربية، ويبدو واضحـــاً أن البديـــل الثوري ــ برغم المصاعب والعقبات ــ هو البديل الوحيد القادر على تحرير الشعب الفلسطيني.

وحتى ندرك مضمون وطبيعة وإمكانية البديل الثوري الـــذي تقدمـــه الاشتراكية لحل القضية الفلسطينية، علينا البدء مـــن فـــهم طبيعـــة الصهيونية ومصالحها وروابطها مع الإمبريالية.

القسـم الثانـي

.. الصهيونية أشرس عدو للتحرر والثورة ..

يعلم أي مناضل من أجل العدل والحرية أن الصهيونية هي العدو الأول للتحرر والثورة في المنطقة العربية. ويعلم أي مناضل من اجل العدل والحرية أن إسرائيل – كتجسيد مادي للصهيونية – هي كلب حراسة المصالح الاستعمارية الذي مارس طوال عقود الاضطهاد والقمع، ليس فقط ضد الشعب الفلسطيني وانما ايضا ضد كل الشعوب العربية وغير العربية في هذه المنطقة من العالم. يشهد على ذلك القصف والاحتلال والتجويع الذي مارسته دولة الاستعمار الاستيطاني في السنوات منذ تأسيسها في ١٩٤٨ وإلى اليوم. فلقد احتلت إسرائيل – إلى جانب فلسطين – سيناء، الجولان، جنوب لبنان، وأجزاء من الأردن. وقصفت إسرائيل، مرة أو مرات، مصر وسوريا ولبنان والعراق وتونس. وفي كل لحظة كانت تتهدد فيها المصالح الرأسمالية العالمية المرتبطة بتدفق النفط في الشرق الأوسط، كانت إسرائيل بآلتها العسكرية تقف بكل عنف الى جانب الاستعمار.

فلماذا لعبتِ الصهيونية هذا الدور في منطقتنـــا؟ ولمـــاذا وقفـــت وراءها الإمبريالية دوماً ودعمتها بالمال و العتاد و السلاح؟

اضطهاد اليهود في عصر الرأسمالية

من الخطأ الشديد الخلط بين الصهيونية واليهودية. فكما أكـــد كارل ماركس(١) و إبراهام ليون(٢)، لم تنشـــأ الأزمـــة المرتبطـــة باضطهاد اليهود في المجتمعات الأوروبية نتيجة خصوصية العقيـــدة أو الثقافة اليهودية، وإنما نتيجة خصوصية الوضعية الطبقية لليـــهود الأوروبيين في القرون الوسطى.

فالوظيفة الاقتصادية الواحدة ليهود أوروبا ــ وظيفة المرابـــي ــ قد جعلت منهم شعب – طبقة، أي شعب ينتمي كل أبنائه لـــوضع طبقي واحد. وهذا بالتحديد ما جعلهم يصبحون موضوعـــاً لكراهيـــة وسخط الفلاحين الفقراء في العصر الوسيط، خاصـــة فـــي أوقـــات الانتفاضات الفلاحية. ولا غرابة في هذا، فاليهودي كان يمثل بالنسبة للفلاح الفقير مصدر البؤس والفقر والدين، ولذلك فقد اصبـــح هـــو، وليس غيره، هدفا للكراهية والاحتقار.

(١) كارل ماركس مفكر اشتراكي ثوري عاش في القرن التاسع عشر. وهو مؤسس الاشتراكية نفسها التي يطلق عليها اسم الماركسية.
(٢) ابراهام ليون اشتراكي ثوري يهودي عاش في النصف الأول من القرن العشرين.

ومع قدوم عهد الرأسمالية الحديثة، بدأت طبقة جديـــدة مـــن التجار المسيحيين في التكوّن. هذه الطبقة دخلت في منافسة شديدة مع تجار العصور الوسطى اليهود. وعلى أساس هذه المنافســـة بـــدأت تتشكل من جديد الأفكار المعادية للسامية للتعبير عن كراهية تجـــار البرجوازية الجديدة من المسيحيين لمنافسيهم من اليهود.

من ناحية أخرى، ومع مرور الوقت و توســـع الرأســـمالية، بدأت الوحدة الطبقية لليهود في التفكك شيئاً فشئ. إذ توزع الشعب – الطبقة بين الطبقات الحديثة المختلفة: الطبقـــة العاملـــة، الطبقـــات الوسطى، والبرجوازية. وقد سهّل هذا التفكك مـــن عمليـــة اندمـــاج اليهود في المجتمعات الأوروبية الحديثة. فالعمال اليهود بدءوا يـــرون مصالحهم أقرب إلى مصالح العمال الأوروبيين الآخريـــن، وكذلـــك الحال بالنسبة لليهود من باقي الطبقات.

ولكن كما أثبتت التطورات اللاحقة فإن هذا الاندماج الأولـــي لليهود في المجتمعات الأوروبية لم يكن أكثر من فجر كاذب. ذلك أن تناقضات تطور المجتمعات الرأسمالية الأوروبية والعالمية أدت إلـــى إعادة بعث المسألة اليهودية بشكل أعنف وأكثر وحشية. فبالذات فـــي أوروبا الوسطى والشرقية ـــ حيث بدأ التطور الرأسمالي متأخراً وفي

ظل عهد من الحروب و الأزمات الاقتصادية و التنافس الإمبريـالي ــ كان دمج اليهود عملا أكثر صعوبــة وملـيء بالتناقضـات. و لأن الرأسمالية في هذه المرحلة ــ حوالي بداية القرن العشرين ــ كـانت تنمو في ظل الأزمة و التناحر، فقد جعلت الطبقات الحاكمة من اليهود كبشا للفداء توجه إليه سهام العداء و الكراهية بدلا من توجيهها للحكام أنفسهم.

من هنا ظهرت أزمة اضطهاد اليهود في العصــر الحديـث، ومن هنا أيضا طرحت القوى السياسية المتنافسة و المتعارضة حلـولا لها.

ميلاد الصهيونية

ظهرت الصهيونية في أوروبا في نهاية القرن التاسع عشــر كحركة قومية رجعية ذات تأثير محدود تعبر عن مخاوف وطموحات المالكين الصغار و المتوسطين اليهود (البرجوازية الصغيرة)، وتدعـو إلى إنشاء وطن قومي لليهود. فهؤلاء كانوا من ناحية أولى يكرهـون الاشتراكية لأنها ستؤدي إلى سلب الامتيازات المحدودة و الاســتقرار النسبي الذين يتمتعون بهما باعتبارهم مــن المــالكين أو الموظفيــن الصغار، وكانوا من ناحية ثانية يبحثون عن قوة تخلصهم من شــر

العنصرية التي تواجههم وتهدد حياتهم. وقد وجدوا ضالتهم المنشودة في الصهيونية التي تتوافق بسبب طبيعتها الرجعية العنصرية مع مصالحهم، وأيضاً مع المصالح الاستراتيجية للرأسماليين اليهود الذين تعرضوا ــ بالذات مع استفحال خطر الفاشية ــ إلى هجمات وضربات هددت استثماراتهم بشكل حقيقي.

وهكذا بدأت الصهيونية عهدها كحركة رجعية تجذب إلى صفوفها نشطاء يهود أغلبهم من الطبقات الوسطى يحلمون بوطن يهودي يحميهم من الاضطهاد والاشتراكية معاً! ولم يكن أمامها ــ حيث رفضها أغلب عمال وجماهير اليهود الذين كانوا يرفعون راية التحرر الاشتراكي ــ أي بديل غير أن تتحول إلى حليف أساسي للاستعمار العالمي. فقد اعتمدت على الدول الاستعمارية اعتماداً كاملاً، وسعت من خلال تحالفات معقدة مع إنجلترا وفرنسا ثم مع الولايات المتحدة إلى الحصول على قطعة أرض لتصبح وطناً قومياً لليهود.

بالنسبة للصهيونية كان التحالف مع الاستعمار اختياراً استراتيجياً وليس مجرد صدفة. ذلك أن النضال الجماهيري من أسفل لم يكن بديلاً ممكناً لتحقيق النصر لما يسمى بالقومية الصهيونية. فمن

ناحية أولى كانت جماهير اليهود من العمال تـــرى مصالحـــها فـي النضال الاشتراكي، ومن ناحية ثانية كان اليهود قد فقــدوا بـالفعل وحدتهم وتوزعوا على مدى القرون المتتابعة بين دول قومية مختلفة، مما عنى أن ضميهم في وطن واحد كان يتطلب "المســاومة" علـى قطعة أرض تصبح هي الوطن القومي المزعوم.

أما الدول الإمبريالية فقد مثلت الصهيونية بالنسبة لها، خاصـة بعد توطن مئات الآلاف من الصهاينة في أرض فلسطين، فرصــة هائلة لضرب حركة الثورة والتحرر في المنطقة العربية من خـلال تكوين دولة قوية وحليفة في الشرق الأوسط تسـتطيع أن تقـاوم أي محاولة للتخلص من السيطرة الاستعمارية. وقد زادت أهمية إنشـاء هذه الدولة أضعافا مضاعفة مع زيادة أهمية النفط كمصدر أساسـي للطاقة بالنسبة للرأسمالية العالمية، ومع الاكتشافات المتتالية لحقولـه في المنطقة، خاصة في دول الجزيرة العربية الضعيفة والهشة وغير المهيأة لمقاومة أي مد ثوري يأتي مثلا مـن مصـر أو العـراق أو سوريا أو إيران.

الصهيونية تتحول إلى دولة

لماذا وكيف تحولت الصهيونية من حركة أقلية فـــي أوســاط اليهود إلى دولة قوية يؤيدها نسبة كبيرة من اليهود في العالم؟ ولمـاذا وكيف نجحت هذه الحركة في انتزاع أعـــداد كبـيرة مـــن العمــال والجماهير اليهودية من معسكر الاشـــتراكية وإلقائـــهم فـــي براثـــن الرجعية؟ أهم سبب يفسر هذا الانقلاب الهائل هو الهزائم التي لحقـت بالثورات العمالية التي اندلعت في أوروبا في أعقاب الحرب العالميـة الأولى (١٩١٤ –١٩١٨). فلقد أدت هذه الهزائم، وما تلاهـــا مــن وصول الفاشية ــ أحط أشكال الحكم البرجوازي وأبشعها ــ لمواقــع السلطة في عدد من الدول الأوروبية الكبرى، إلى ســـيطرة اليــأس والرعب والأفكار الرجعية في أوساط واسعة من الفئات البرجوازيــة الصغيرة في أوروبا. وبالنسبة لجماهير اليهود بالذات كانت الهزيمــة تعني الشيء الكثير: كانت تعني غرف الغـــاز والتــهجير والإبــادة الجماعية. وفي هذا الكفاية حتى نفهم كيف أن عدداً ليس بالهين مـــن العمال اليهود رأوا في الحل الصهيوني مخرجاً من الموت المحقـــق الذي ينتظرهم على يد هتلر وموسوليني وأشباههم. وقد تزايد نفـــوذ الصهيونية في ظل هذه الظروف شيئاً فشيئ، خاصـــة مـــع ارتفـــاع معدلات تهجير اليهود من الدول التي احتلها النازيون. فلقـــد اقتلـــع

الهجير العمال اليهود من بيئاتهم العمالية، وأضعف صلاتهم بالقوى الاشتراكية التي تلقت ضربات هائلة مع صعود الفاشية.

على أنه من الضروري أن نشير هنا إلى حقيقة تاريخية هامة، وهي أن معظم العمال اليهود لم يتحولوا إلى الصهيونية، بل حاولوا الهجرة إلى دول أخرى غير إسرائيل. ولكن مزيج القوة والتحايل من جانب دول الحلفاء دفع الكثيرين منهم دفعا إلى إسرائيل التي لم يجدوا لها بديلا. ولكن في سياق الوضع كله ساد في أوساط اليهود إن لم يكن تأييد إيجابي للصهيونية، فعلى الأقل درجة من التعاطف السلبي معها ثم بعد ذلك مع دولتها الوليدة.

وبعد نهاية الحرب العالمية الثانية أصبح الوضع مهيئاً، في إطار تقسيم الغنائم بين دول الحلفاء المنتصرة، لنشوء دولة إسرائيل. وبالفعل نشأت الدولة في ١٩٤٨ بعد حرب إبادة وطرد شنتها العصابات الصهيونية المسلحة ضد الشعب الفلسطيني. وفور إعلان الدولة ـــ بالتحديد بعد ١١ دقيقة من إعلانها ـــ اعترفت بها الولايات المتحدة، وتلتها الدول الإمبريالية المختلفة.

القســـــم الثالــــث

.. استعمار فلسطين وكفاح الشعب من أجل التحرر ..

تاريخ حركة التحرر الوطني الفلسطينية على مـــــدى ثلاثـــة أرباع قرن أو أكثر ــ أي منذ عهد الانتداب البريطاني ــ هو تــاريخ الصراع الطبقي في فلسطين والمنطقة العربية. عندما نتحــدث عــن حركة التحرر الوطني الفلسطينية نحن في الواقع لا نتحـــدث عــن حركة واحدة منسجمة، وإنما عن استراتيجيات مختلفة ومتعارضــــة تبنتها، ولا زالت تتبناها، القوى الطبقية والسياسية المختلفة. وعندمــا نتحدث عن فشل هذه الحركة في تحقيق أي من آمـــال وطموحــات الشعب الفلسطيني، فنحن بالتحديد نتحدث عن فشـــل اســتراتيجيات البرجوازية الفلسطينية والبرجوازيات العربية ــ وهي القوى التـــي سيطرت أغلب الوقت على حركة التحرير الفلسطينية ــ في تحقيــق الاستقلال.

الفشل الذي نتحدث عنه لم يكن صدفة ولم يكـــن بالأســاس نتيجة تآمر بسيط من جانب القادة والحكومات، وإنما كـــان نتيجـــة إفلاس القوى البرجوازية وارتباطها العميق بالاستعمار ومصالحـــه وما يشير إليه هذا الفشل هو أنه في فلسطين، ربما أكثر من أي مكان

احر، يحتاج الانتصار على الإمبريالية إلــى قيــادة طبقيــة ثوريــة وجدرية تستطيع أن تقطع الروابط مع الأنظمة ومع الاســتعمار وأن تفتح الطريق أمام النضال الجماهيري من أسفل.

أصل المسألة الفلسطينية

لأن الصهيونيــة حركــة شــديدة الرجعيــة، ولأن صلتــها بالإمبريالية صلة حياة أو موت، فقد اعتمدت منذ نشأتها وحتى اليـوم على وسائل شديدة الدموية والوحشية لخلق دولتها والحفـــاظ علـــى وجودها. الصهيونية في حقيقتها لا تعدو أن تكون حركــة اســتعمار استيطاني وفصل عنصري. وهي في ذلك شديدة الشبه بحركة الفصل العنصري (الأبارتهايد) في جنوب أفريقيا.

منذ بداية الموجات الأولى للهجرة اليهودية وحتـــى تأســيس دولة إسرائيل في ١٩٤٨ وما بعد ذلك، اتبعت الصهيونيـــة سياســة عزل الاقتصاد والمجتمع اليهوديين عن مثيليهما الفلســطينيين. وقــد توسع هذا الفصل العنصري كلما اكتسبت الصهيونية قوة على أرض فلسطين. وعند النقطة الفاصلة ــ عندما قررت الصهيونية أن تقيــم دولتها بعد أن اقتنعت الإمبريالية تماما بأهمية هذه الدولة لمصالحــها

ــ تطورت سياسة الفصل العنصري إلى نتيجتــها المنطقيــة وهــي التطهير العرقي. ففي حرب ١٩٤٨ قام الصهاينة بمذابح بشعة هدفها طرد مئات الآلاف مـــن الفلســطينيين مــن أراضيــهم ومنازلــهم لـــ "تطهير" الدولة الوليدة من الوجود الفلسطيني.

إن أهمية الحديث عن مسألة طرد الفلسطينيين وتطوراتها تنبع في الحقيقة من تأثيرها الشديد على مصير حركة التحرر الفلسطينية. فعندما طرد الفلسطينيون من أراضيهم في ١٩٤٨ هربوا إلـــى ذلــك الجزء من فلسطين الذي لم تحتله إسرائيل وهو الضفة الغربية وقطاع غزة، وأيضاً هربوا إلى الدول العربية المجـــاورة (كإمـــارة شـــرق الأردن). ولكن مصير الفلسطينيين من طبقات مختلفة كان متباينا. لم يميز الاستعمار الصهيوني بين فلسطيني غني وفلسطيني فقير عندمـا طرد الجميع. ولكن كبار ملاك الأراضي الفلسطينيين والبرجوازيـــة الناشئة استطاعا ــ عن طريق تحويل ذلك الجزء من ثرواتهم القــابل للتحويل إلى الدول العربية ــ أن يجدا لنفسيهما حماية ووفرها المـــال والثروة. أما العمال والفلاحون الفقراء والمعدمون والفئات الأفقر من المهنيين وأبناء الطبقة الوسطى فلم يجدوا أمامهم إلا المخيمات التـــي نصبت للاجئين. لقد كان الشتات الفلسطيني كارثة قومية ترتب عنـــى

كل الطبقات في فلسطين، ولكن معنى الكارثة ومضمونـــها اختلفـا اختلافاً عميقاً بين طبقة وأخرى.

بعد الهزيمة والتهجير في ١٩٤٨ أصبح واضحـاً تمامـاً أن الانتماء الطبقي هو الذي يحدد مصير الفلسطيني الذي فقد وطنه. فمن ناحية أولى تزعرعت ونشطت البرجوازية الفلسطينية فـي الـدول العربية المجاورة لفلسطين وحققت نجاحات وراكمت ثروات وأصبح تشابك المصالح بينها وبين الأنظمة والبرجوازيات العربيـة أعمـق وأعمق. ومن ناحية ثانية كان الباب مفتوحاً لأعـداد واسـعة مـن المهنيين لكي يعرضوا مهاراتهم ويبيعوها لـرأس المـال العربـي (خاصة في دول الخليج النفطية). أما عمـال فلسـطين وفلاحوهـا الفقراء فلم يجدوا مخرجاً. محصلة الاستعمار والطرد بالنسـبة لـهم كانت تدهوراً حاداً في أوضاعهم: فقدان الأرض، زيادة في معـدلات البطالة، اضطهاد واسع من الدول المستقبلة لهم ...الخ. المفارقة فـي هذا الوضع هي أن الخيط الواهي والوهمي الذي وحد الفلسـطينيين من كل الطبقات ــ خيط الرغبة في إقامة وطن قومي مستقل ــ كان مجرد غطاء فضفاض يخفي التباين العميق في الوضـع والمصـالح والأهداف بين طبقة وأخرى. الجميع كانوا يتحدثون عن التحرير، بل

و"الثورة الفلسطينية". ولكن معنى هذه الألفاظ كان مختلفا تماما على جانبي السد الذي يفصل بين الطبقات.

تناقضات استراتيجيات المقاومة

بدأت حركة مقاومة الاستعمار في فلسطين في العشرينات والثلاثينات من القرن العشرين. وقتذاك كان الاستعمار يتمثل في الانتداب البريطاني، جنبا إلى جنب مع الموجات الأولى من المهاجرين الصهاينة الذين شكلوا عصابات من المستوطنين المعادين لحركة التحرر الفلسطينية. بدأت الحركة بمبادرة من الجماهير الفلسطينية المستغلة والمقهورة في شكل إضرابات ومظاهرات ومصادمات شوارع وحركة مقاطعة للبضائع والوجود الاستعماريين. وقد وصلت الحركة إلى إحدى ذروتها في ثورة ١٩٣٦. حيث نظم إضراب عام صاحبته مظاهرات عارمة قمعها المستعمر بالحديد والنار.

وقد لعبت الحركة الجماهيزية مرة أخرى دورا جوهريا في النضال الفلسطيني من أجل التحرر في النصف الثاني من الثمانينات مع بدء الانتفاضة الفلسطينية في ديسمبر ١٩٨٧. وكما حدث في الثلاثينات، كانت المبادرة في إشعال الانتفاضة للجماهير المقهورة في

الأرض المحتلة. مزجت الجماهير، خلال سنوات الانتفاضـــة، بيـــن أشكال متعددة للنضال بدأت من الإضرابات والمقاطعة والمظاهرات، ووصلت إلى حروب الشوارع مع قوات الاحتلال المدججة بالسلاح.

نلاحظ في هذا السياق أنه بين بداية حركة التحرر الفلسطينية وبيـــن زمن الانتفاضة الأولى ثم ما بعدها، مر النضال الفلسطيني بمنعطفات وتقلبات متعددة كشفت عن حدود دور كل طبقة وكل قوة سياسية فـي المعركة ضد الاستعمار. كشفت تقلبات النضال الفلسطيني عن حقيقة أخرى مريرة وهي أن كل هزيمة للمقاومة كانت تنقـــل المشـــروع الاستعماري الصهيوني إلى مرحلة أخرى من مراحله تتميز بعنـــف ووحشية أكبر من سابقاتها. إن محصلة التاريخ وخبراتـــه هـــي أن الحدود الضيقة للنضال الوطني ـ نعني النضال القائم على فـــرض تحالف بين البرجوازية الفلسطينية والبرجوازيات العربية من ناحيـــة أولى وبين جماهير الفلسطينيين الفقراء من ناحية ثانية ـ كانت وراء كل هزيمة، وكانت أيضاً وراء الاستسلام المخـــزي علـــى طاولـــة المفاوضات الذي رأيناه على مدى السنوات العشر الماضية.

ففي المعارك الجماهيرية الأولى في العشرينات والثلاثينـــات كانت الطبقات المالكة (كبار ملاك الأراضى أساســـاً) تســـعى بكـــل

طاقتها إلى كبح جماح حركة الجماهير واستقلالها. كان كل توسع في حركة الجماهير يقلق كبار الملاك وممثليهم السياسيين ويثير خوفهم من أن تفلت الأمور من الزمام وتتحول إلى ثورة شاملة يشنها الفقراء ليس فقط ضد الاستعمار وإنما أيضاً ضد استغلال الأغنياء والمالكين للفقراء. ولقد سعت القوى الممثلة لكبار الملاك إلى مساومة مع الاستعمار لقطع الطريق على تنامي الثورة وتوسعها، وهو ما أدى إلى الهزيمة وبالتالي إلى انتعاش المشروع الاستيطاني الصهيوني (نذكر أنه بعد ما يزيد قليلاً على عقد من هزيمة ثورة ١٩٣٦ تأسست دولة إسرائيل).

ومع إعلان الدولة الصهيونية ومع نجاح سياسة التطهير العرقي التي مارستها الدولة الجديدة ضد الشعب الفلسطيني، تغيرت الظروف الموضوعية للنضال الفلسطيني. فلقد أصبح معظم الشعب في ذلك الحين مطروداً خارج حدود دولة إسرائيل. ولذلك أصبح السؤال هو "من أين وكيف تنطلق المقاومة؟" بعد فترة ركود في النضال جاءت أهم الإجابات وأكثرها أساسية في مطلع الستينات على يد حركة فتح، وهي حركة تأسست على يد مجموعة من مهنيي الطبقة الوسطى ذوي الحال الميسور. كانت إجابة فتح سهلة وبسيطة: على المقاومة أن تنطلق من الدول العربية المجاورة لإسرائيل

(حينذاك كانت الضفة تحت سيطرة الأردن وغــزة تحــت سـيطرة مصر) ، وستكون بأيدي الفلسطينيين أنفسهم وفـــي شــكل حركــة مسلحة، والهدف هو الضغط على الأنظمة العربية ودفعها لأن تقــوم هي بمواجهة كبرى مع إسرائيل تتحرر نتيجة لها فلسطين. إجابة فتح كانت تقوم على مجموعة من الركائز أهمها هو "عدم التدخـــل فـــي الشئون الداخلية للدول العربية".

لماذا طرحت فتح هذا الشعار المركزي ــ نقصد شعار عـــدم التدخل في الشئون الداخلية للدول العربية ــ وصممــت عليــه مــن البداية حتى النهاية؟ السبب يكمن في طبيعة فتح ذاتها. فهذه المنظمــة كانت تعكس الآمال والطموحـــات السياســية للمــهنيين والطــلاب الميسورين من الطبقة الوسطى في إنشـــاء وطــن قومــي مســتقل للفلسطينيين. هؤلاء كانوا "وطنيين"، ولكن وطنيتهم كانت أسيرة تماماً لمصالح البرجوازية. الخط الأحمر الذي رفض قادة فتـــح دائمـــاً أن يتخطوه كان هو هز استقرار سلطة البرجوازيات في المنطقة. بل إن فتح سعت، بالعكس، إلى دفع تلك الأنظمة ذاتها إلى تبنـــي القضيــة الفلسطينية، وتبني حركتهم مالياً وسياسياً! ولذلك اعتبرت أن أحد أهم انتصاراتها هو ما أعلنه مؤتمر القمة العربي فـــي الربـــاط مـــن أن منظمة التحرير الفلسطينية (التي تهيمن عليها فتـــح) هـــي الممثــل

الشرعي والوحيد لشعب فلسطين!! هذا الانتصار المزعوم كان في الحقيقة تعبيرا عن نجاح فتح في إقناع البرجوازية الفلسطينية والأنظمة العربية أنها تستطيع أن تحتوي حركة المقاومة في حدود آمنة بالنسبة لهم.

والسؤال هو: هل كان يمكن ألا تتناقض حركة حقيقية للمقاومة الفلسطينية مع الأنظمة العربية؟ التاريخ أثبت العكس. فدائما ما كانت المقاومة الفلسطينية تمثل عنصر عدم استقرار في الدول العربية. الفقراء الفلسطينيون في المخيمات وفي الشتات عموما لعبوا دائما دوراً مفجراً للنضال الطبقي في الدول العربية. في دول الخليج مثلاً ــ وفي السعودية بالذات ــ كان الفلسطينيون، الذين أصبحوا في الخمسينات والستينات كتلة هامة من عمال النفط، هم قادة ومحرضو الإضرابات العمالية التي هزّت العروش ودفعت الجيش إلى التدخل لإيقافها. وفي الأردن كان التجذير الذي خلقه التواجد الواسع للفلسطينيين هو السبب وراء اهتزاز عرش الملك حسين بشكل خطير على مدى شهور عام ١٩٧٠. وفي لبنان كان وجود المقاومة بعد انتقالها إلى هناك عاملا من عوامل خلق الوضع شبه الثوري في أوائل السبعينات.

لم يكن كل هذا صدفة. فدرجة تسييس الفلسطينيين عالية. ووضعيتهم في الدول العربية المضيفة لهم قائمة على الاضطهاد (لهم وضع أدنى في الحقوق والمعيشة). والتجربة المريرة لحياة في المخيمات تؤجج روح المقاومة، والقضية الوطنية مشتعلة ومركزية. كل هـذا كـان معناه من وجهة نظر الأنظمة العربية أن هناك ضـرورة لاحتـواء الفلسطينيين، وإن لزم الأمر قمعهم. ولذلك فإن أي تنظيـم سياسـي للفلسطينيين في الدول العربية كان يعد خطرا رهيبـا. وأي نشـاط سياسي لهم، حتى ولو ضد إسرائيل فقط، كان يقابل بكـل الحـزم. ولعل ذلك يفسر بدرجة كبيرة لماذا كانت فتح نفسها، بـالرغم مـن مواقفها القائمة على عدم التدخل في الشـئون الداخليـة للأنظمـة، تتصادم مع الدول العربية من آن لآخر، خاصة عندما كانت تضطـر تحت وطأة الضغط من أسفل للسير مع موجة المقاومة الشعبية.

الحكام العرب كانوا يخشون من حركة المقاومة الفلسـطينية، ويرتعدون من إمكانية توسعها أو التحامها بحركة الجماهير العربيـة الفقيرة لتصبح قوة حقيقية وهادرة تكنس الأنظمة. وقـد كـان لـهذا الخوف ما يبرره. فقد رأى الحكام العرب جميعا صورة مسـتقبلهم ــ إذا لم يقمعوا حركة المقاومة الفلسطينية ــ في وضعية الملك حسـين المتهاوية في عام ١٩٧٠. ولذلك فقد كانت الأنظمـة تكبـح جمـاح

المقاومة، وتستخدم القضية الفلسطينية فقط كورقة ضغط في "لعبـــة الأمم". ومنظمة فتح هنا كانت هي القوة السياسية الوحيدة المقبولـــة، وذلك بالضبط لأنها وضعت كل رهانـــها علـــى الأنظمـــة وعلـــى الإمبريالية.

على أن الهوس بالأنظمة وبالتحالف بين الطبقات والخـــوف من الجماهير لم يكن فقط سمة مميزة أساسية لفتح، وإنما أيضاً مـــيز بدرجة ما القوى الأكثر جذرية. فالجبهة الشعبية والجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين، وهما على يسار فتح، اعتمدتا على الأنظمة التـــي يقال عنها أنها راديكالية في المنطقة العربية (كسوريا). هذا بـــالرغم من أن سوريا، فيما يخص مسألة دعم النضال الفلسطيني، لم تكن أبداً أفضل من الدول العربية الأخرى (لا ننس أن مذبحة تـــل الزعـــتر للفلسطينيين في ١٩٧٦ تمت بأيدي سورية).

أما حركة المقاومة الإسلامية (حماس) والجهاد الإسلامي فـــي فلسطين ــ وهما أهم معارضي منظمة التحرير الفلسطينية اليـــوم ــ فإن أيديولوجيتهما المختلفة شـــكلاً لا تعنـــي اختلافـــاً كبـــيراً فـــي المضمون. فإصرارهما على سياسة التحالف بين كل قوى (طبقـــات) الشعب الفلسطيني، وتذبذبهما في مواجهة الخـــط المـــهادن للســـلطة

الفلسطينية، شتت إمكانيـــات تصعيـــد وتعميـــق حركـــة المقاومـــة الفلسطينية. وبالرغم من بطولة المناضلين الإسلاميين الذين ينفـــذون عمليات استشهادية ، إلا أن الميل للتعالي على الجماهير لدى حماس والجهاد عرقل فرص الربط بين عمليات المقاومـــة وبيـــن حركـــة الجماهير العاملة الفلسطينية.

الانتفاضة الفلسطينية الأولى

انطلقت الانتفاضة الفلسطينية الأولى في ديسمبر ١٩٨٧. وقد مثّل انطلاقها تحول كيفي في حركة النضال الفلسطيني. إذ فتح دخول الجماهير الفلسطينية العريضة إلى ساحة المعركة أفقاً جديداً لتحريـــر الأرض المحتلة وحـــل القضيـــة التـــي أثبتـــت الأنظمـــة العربيـــة والبرجوازية الفلسطينية أنهما غير قادرين على ــ ولا راغبين في ــ حلها.

لم تكن أعمال العصيان المدني التي تميزت بـــها الانتفاضـــة جديدة، بل جاءت كتطوير وتتويج لنضال متصاعد شهدته الســـنوات السابقة. على أن الانتفاضة تميزت عما سبقها بسمتين بـــارزتين: أولاً اتساع النطاق، وثانياً التنظيم من أسفل. ومن حيـــث النطـــاق فـــإن جموعاً هائلة من الناس ممن لم يكن النشاط السياســـي جـــزءاً مـــن

عالمهم في السابق راحوا يشاركون في العمل النضالي علـــى نحـــو أذهل قادة الاحتلال، بل وفاق توقعات أكثر أنصار الثورة الفلســطينية تفاؤلاً. فهاهم الأطفال يواجهون بالحجارة في أيديهم والأرواح البريئة في صدورهم دبابات جيش الاحتلال، وهاهم العمال الذيــن اعتــادوا على العمل في إسرائيل و"المشي في حالهم" طلباً للرزق مــن أجــل إطعام ذويهم يدخلون إضراباً يتوالى من شهر لآخر، وهاهن النســاء يبدعن في إذكاء روح المقاومة وبناء الظروف والمؤسسات الكفيلـــة بتعزيز القدرة اليومية على البقاء خلال شهور الانتفاضة وســنواتها، وذلك من خلال ما أقمنه من مدارس بديلة ودور حضانة وغيرها.

إن اتساع نطاق الانتفاضة قـــد أربــك قيــادات المشــروع الصهيوني على نحو غير مسبوق. فرابين مثلاً، الذي تولـــى وزارة الدفاع عام ١٩٨٥ من أجل إخماد أعمال المقاومة التي كـــانت فـــي تصاعد رغم تكثيف القمع الإسرائيلي، قد استشعر في قيام الانتفاضـــة واتساعها على ذلك النطاق الهائل هزيمة شخصية له. فقد وجد هـــذا القائد العسكري ــ المشهود له بـــ"الكفاءة" فـــي قمـــع الفلســطينيين والعرب ــ نفسه عاجزاً أمام صبية يقذفون جنوده بالحجارة. جاء إلى وزارة الدفاع ليحطم المقاومة فإذ به يجد نفسه مشلولاً أمـــام ثـــورة

شاملة. وبعد أن كان يتهم منظمة التحرير بأنها وراء الأحـــداث بـــدأ يعترف أن الحركة انطلقت عفوياً من أسفل.

ولكن العفوية لم تظل على حالها. تطورت الانتفاضة خـــلال أسابيع من اندلاعها وبدأت روعة تنظيمها تظـــهر. نشـــأت اللجـــان المحلية من كل نوع وفي كل مكان لتنظيم كافة جوانب الحياة في ظل المواجهات البطولة اليومية مع جيش مدجج بالسلاح متمرس علـــــى الوحشية. لجان لتنظيم العمل الزراعي وأخرى لتنظيم توزيع الســـلع الاستهلاكية على أساس تعاوني .. لجان لتنظيـــم إغـــلاق المتـــاجر والمحلات وأخرى لتنسيق إضرابات العمال.. لجان تشـــرف علـــى المدارس البديلة وأخرى تدعم أهالي الشهداء والمعتقلين .. الخ. ومن قلب كل هذه اللجان القاعدية خرجت القيادة الموحدة للانتفاضة التـــي تخرّج كوادرها من مدرسة النضال الثوري المتمثلـــة تحديـــداً فـــي سجون إسرائيل.

القســـم الرابــــع

.. بين "السلام الأمريكي" و"الثورة الجماهيرية" ..

عندما انطلقت الانتفاضة الفلسطينية في أواخر ١٩٨٧ اعتقد كثير من المناضلين أن الإجابة على سؤال كيف تتحرر فلسطين؟ قد أعلنت على يد الجماهير. وبلا شك فإن الانتفاضة قد قلبت العديد من الموازين وكلفت إسرائيل أموالا كثيرة وخلقت موجة من التعاطف العالمي مع القضية الفلسطينية. بل أنها قد أشعلت حركة مؤثرة للتضامن مع الشعب الفلسطيني في الدول العربية. وأكدت بذلك على أن القضية الفلسطينية يمكنها أن تلعب دورا مفجرا للصراع الطبقي في المنطقة.

ولكن بعد سنوات على بدء الانتفاضة كانت المحصلة أن سلطة الاحتلال ظلت جاثمة على الضفة والقطاع بينما عرفات يجلس على طاولة المفاوضات يستجدي حكم ذاتي محدود. فلماذا حدث هذا؟ جزء أساسي من الإجابة يكمن بالطبع في الدور القذر الذي لعبه عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية لاستخدام الانتفاضة لتحقيق مصالحهم ثم وأدها بعد ذلك.

فلقد أعادت الانتفاضة القضية الفلسطينية إلى مقدمة مســـرح الأحداث. وبتهديدها لإسرائيل أعطت للقيادة الفلسطينية المتمثلة فـــي منظمة التحرير فرصة للمساومة مع القوى الدولية ولفرض بعـــض الشروط لبعض الوقت. وهكذا ــ وبضغط مـــن الأنظمـــة العربيـــة المذعورة من تصاعد الانتفاضة وحركة التضامن معها ــ اعـــترفت الولايات المتحدة زعيمة الإمبريالية العالمية بمنظمة التحرير ودفعـت إسرائيل للدخول في مفاوضات سلام. البرجوازية الفلسطينية عـثرت على ضالتها المنشودة أخيراً! فلطالما حلمت بالحصول على دولتـــها المستقلة الصغيرة لتحمي فيها مصالحها، ولطالما طالبت الإمبرياليـــة أن تقبل بالطريق "السلمي" لتكوين هذه الدولة. وهاهي تأخذ ما تريـــد بفضل الانتفاضة. وهكذا أصبحت الانتفاضة مجرد ورقة ضغط فـــي المناورات الديبلوماسية: يحتويها ثم يقضي عليها عرفات في مقـــابل رضا الأنظمة والإمبريالية وفي مقابل قطعة أرض وعلم ونشيد. وقـد سهّل من هذا كله تصاعد تأثير تيار أنصار التســـوية السـلمية فـــي أوساط الطبقة الحاكمة الأمريكية في مطلع التسعينات. فـــأولئك رأوا أن الفرصة سانحة آنذاك ــ مع انهيار الكتلة الشرقية وتعميق النفـوذ الأمريكي في الشرق الأوسط بعد حرب الخليج الثانيـــة ــ لتصفيـــة

الصراع في المنطقة بشروط أمريكية تضمن أمن إسرائيل، ومن ثـم تضمن المصالح الاستراتيجية للولايات المتحدة.

على جانب آخر، كانت هناك أسباب إضافية هامة وراء ولادة مشروع السلام الأمريكي بعد انتفاضة ١٩٨٧. فلقد أثرت الانتفاضـة بشدة على إسرائيل اقتصاديا وسياسيا، ولكنها لم تستطع ــ ولم يكـن في مقدورها وحدها ــ أن تقضي على دولة الاستعمار الاسـتيطاني. فالانتفاضة لم تكن ثورة، وإنما كانت مقاومة عنيدة باسـلة واسـعة النطاق. ومعنى أنها لم تكن ثورة هو أنها لم تخلـق شـكل ــ ولـو جنيني ــ لسلطة بديلة من أسفل في فلسطين المحتلة بكاملها أو حتـى في الأرض المحتلة في ١٩٦٧. ولم يكن هذا صدفة، وإنما كانت لـه أسبابه. فبالرغم من التطورات الاقتصادية قد خلقت طبقـة عاملـة فلسطينية، إلا أن هذه الطبقة كانت ولازالت ــ بسـبب الاسـتعمار وسياسة الفصل العنصري ــ ضعيفـة وصغـيرة الحجـم. أولا لأن الاستعمار الصهيوني منع تطور رأسمالية صناعية فلسطينية داخـل الضفة والقطاع، وثانيا لأن العمال الفلسطينيين الذين يعملـون فـي إسرائيل معظمهم عمال غير مهرة ليسوا في قلب الإنتاج الصنـاعي الإسرائيلي. إضرابات هؤلاء تؤثر في الرأسمالية الإسرائيلية، ولكـن

يمكن تحملها. وعلى ذلك فلم يكن في مقدور الطبقة العاملة الفلسطينية أن تلعب دور بديل سياسي للقيادة البرجوازية لحركة المقاومة.

الانتفاضة الفلسطينية الأولى إذن لم تستطع أن تمثل وحدهـــا بديـــلاً استراتيجياً لتحرير فلسطين. وهنـــا أصبـــح الســؤال "مـــاذا بعـــد الانتفاضة؟" سؤالاً جوهرياً. بصياغة أخرى أصبح السؤال الأساســي هو: "هل تكون الانتفاضـــة مجــرد ورقــة ضغــط علــى طاولـــة المفاوضات، أم تكون بداية لثورة أشمل وأوســـع نطاقـــاً تعـــم دول المنطقة وتحل معضلة تحرير فلسطين؟" من الواضح أن كـــل بديـــل يمثل مشروعاً طبقياً مختلفاً تمام الاختلاف عن الآخــــر. الأول هـــو مشروع البرجوازية التي تريد دولة تحصل عليها في إطار تســـوية تاريخية مع الإمبريالية. والثاني هو مشروع الثورة الاشتراكية المعبر عن مصالح الجماهير العمالية والفقيرة.

<u>خاتمـــة</u>

.. فى مفتـــرق طـــرق ..

كما نعلم جميعاً، سارت الأمور حتى اندلاع انتفاضة الأقصى الباسلة على طريق بديل التسوية التاريخية مع الإمبريالية. وبالطبع لم يأت هذا البديل بالاستقلال أو بالدولة، وذلك بالضبط لأن البرجوازية الفلسطينية أضعف من أن تفرض دولتها، ولأن إسرائيل أقوى وأهـــم من أن تفرض عليها الإمبريالية دولـــة فلســـطينية. ولكـــن اشـــتعال الانتفاضة قلب الموازين وغير الحسابات. فقد دخلت الجماهير إلـــى المعادلة، وكان دخولها تصويتاً على رفض بديل التسوية ونقطة بداية للمعركة الصعبة من أجل الاستقلال.

اليوم يمكن أن نقول أن النضال الوطنـــي الفلســـطيني يمـــر <u>بمفترق طرق:</u> ما بين الطريـــق الـــبرجوازي والطريـــق الثـــوري. البرجوازية الخائفة من ثورة الجماهير في فلسطين وفي كل المنطقـــة العربية لازالت مصرة على مسيرة الســـلام الداميـــة التـــي تحقـــق مصالحها وتهدئ مخاوفها. أما العمال والفقراء الذين ذاقـــوا ويـــلات

السلام والاستسلام، فلهم مصلحة أكيدة في الثورة على المحتل فـــي الخارج والمستغِل في الداخل.

الحركة الجماهيرية تعيش الآن لحظة باهرة. المظاهرات ضد "السلام" وضد الصهيونية يعلو صوتها في كل مكان. والصلـــة بيـــن الصهيونية والحكام العرب بدأت في الانكشاف. والطريق إلى مستقبل آخر، عدا ذلك الذي فرضته علينا البرجوازيات، بدأ يلوح في الأفـق. فكلما تصاعدت حركة التضامن مع الانتفاضة، كلما تفجرت فـــرص التغيير في فلسطين وفي مصر وفي كل الدول العربية. وكلما ارتفـــع صوت الجماهير الهادر، كلما طفت إلى الســـطح التناقضـــات بيـــن الشعوب والحكام، بين الفقراء وأصحـــاب الـــثروة، وبيـــن أنصـــار الصهيونية وأنصار العدل والحرية.

إن الانتفاضة الفلسطينية اليوم هي الأمل في مســـتقبل جديـــد لعمال وفقراء المنطقة. هذه الانتفاضة، كسابقتها، تضع الجماهير فـــي قلب المشهد التاريخي، وتفتح لهم الباب لصناعة مصيرهم بأيديـــهم، وتبرهن أنهم فهموا أن ما يسمى في قاموس البرجوازيـــات العربيـــة بالسلام هو في الحقيقة استسلام للاحتلال الصهيوني.

إن الحركة الجماهيرية الناهضة اليوم تحتاج إلى أن تتعلم من تجربتها أن مواجهة خيار "السلام" لابد أن تلتحم مع مواجهة أشمل ضد "صناع السلام" في الداخل. والباحثين عن الخبز والحرية ـ الجماهير المقهورة والمستغلة ـ لديهم، من خلاصة تجربتهم الحياتية، معرفة ملموسة بأن "صناع السلام" هم في الحقيقة صناع الفقر والقمع والاضطهاد. فهل سيظهر البديل الثوري الذي سيبلور هذه الخبرة ويحولها، حين يحين الوقت، إلى واقع نضالي متكامل؟

إصدارات المركز

إصدارات تجريبية قبل التأسيس :

١-التراث الماركسى الثورى .

٢-النبى والبروليتاريا .

٣-النقابات العمالية (رؤية ثورية).

٤-رأسمالية الدولة فى روسيا .

٥-الإقتصاد المجنون .

إصدارات بعد التأسيس :

٦-ماركسية تروتسكى .

٧-مجلة طريق الاشتراكية (العدد الاول).

٨- أشعار المقاومة .

٩-كاريكاتير ناجى العلى .

١٠- القضية الفلسطينية (رؤية ثورية) .

١١- نتائج وتوقعات والثورة الدائمة .

١٢- القضية الفلسطينية بين السلام الأمريكى والثورة الجماهيرية.

تحت الطبع :

١٣- قانون-العمل الموحد بين تشريد العمال وهيمنة الرأسمالية

(الجذور الفكرية والسياسية والاجتماعية للقانون)

مُدير المركز :-كمال خليل

مركز الدراسات الاشتراكية

العنوان : ٧ شارع مراد – ميدان الجيزة

تليفون : ٥٧٣٦٨٥٨

الموقع على الإنترنت: www.mdar.org

رقم الإيداع: ٢٠٠٢/٨٤٠٢ مايو ٢٠٠٢

مركز الدراسات الاشتراكية

العنوان : ٧ شارع مراد – ميدان الجيزة

تليفون : ٥٧٣٣٦٨٥٨

الموقع على الإنترنت:www.mdar.org

